آراء

«أنسنة» الإنسان

عبد الحسين شعبان

الأربعاء 9 ديسمبر 2020 12:15 م

«أنسنة» الإنسان

في الأزمات والمنعطفات الحادة تكون مبادئ التسامح أمام امتحان جديد وقاسٍ.

التسامح قبولاً بالآخر دون إكراه انطلاقاً من فلسفة «الحق في الاختلاف» و«الحق في التنوّع» و«الإقرار بالتعدّدية».

إرهاب وتطرّف وإيديولوجيا كراهية تشكّل الغذاء الروحي للتعصّب ووليده التطرّف وهو أمر لا يتعلّق بدين أو شعب أو أمّة أو قوميّة أو فئة.

* * *

بغضّ النظر عن الجانب الفجائعي في جريمة قتل المدرّس الفرنسي صاموئيل باتي والتي هزّت الضمير الإنساني، فإنّ اليمين العنصري المتطرّف حاول استعادة خطابه المكرور، بل سعى لإضفاء شرعية جديدة عليه في ظل موجات غضب وردود فعل حادّة لدى «العامّة».

وذلك باستدرار العواطف وإشعال المشاعر الملتهبة أصلاً، حيث تحرّكت المياه الآسنة في أرخبيلات الكراهية، لدرجة أن بعبع التعصّب ووليده التطرّف استيقظ على نحو غير معهود، حتى بات المسلمون والعرب في خانة العنف والإرهاب، لأنّ دينهم يحضّ على ذلك، وعاد بعض المتعصّبين لاستلال مفردات الكراهية من خزانة الكتب القديمة.

وبدلاً من محاولة عزل المتعصّبين والتأشير لأسباب الجريمة واحتواء الوضع الإنساني بتكوين سياج لصدّ موجة الغضب والتعصّب والتطرّف الديني والسياسي والعنصري، ذهب البعض بالاتجاه المعاكس!

فقد وقفت رئيسة وزراء نيوزيلاند جاسيندا كيت لوريل أردرين متضامنة ومتعاطفة مع المسلمين وضحاياهم، وبالأساس مع القيم الإنسانية التي اهتزت بفعل الحادث الإرهابي لإطلاق النار داخل مسجدي النور ومركز لينود الإسلامي في مدينة كرايستشيرش والذي راح ضحيته نحو 100 إنسان بين قتيل وجريح.

وفي الأزمات والمنعطفات الحادة تكون مبادئ التسامح أمام امتحان جديد وقاسٍ، فلم يكن الإنسان النيوزيلاندي العادي المسالم هو من يمارس القتل بحق المسلمين ويستبيح حرماتهم وأماكن عبادتهم.

وإنما هناك نفر متطرّف يؤمن بسيادة البِيضِ ويستخدم شعارات نازية جديدة، مثلما لم يكن الفرنسي العادي أو المهاجر ذو الديانة المسلمة هو من يرتكب الجرائم باسم الإسلام في فرنسا أو في المدن الأوروبية المختلفة، بل هناك نفر متعصّب وإرهابي يقوم بذلك باسم «الإسلام» وهو منه براء.

وفي الحالين كان هناك إرهاب ومتطرّفون، مثلما هناك إيديولوجيا للكراهية والحقد والضغينة، لأنّها تشكّل الغذاء الروحي للتعصّب ووليده التطرّف، وهو أمر لا يتعلّق بدين أو دولة أو شعب أو أمّة أو قوميّة أو فئة اجتماعية.

بل إنّ فيروسه يمكن أن يصيب الجميع، فيمسّ النفوس البشريّة لأسباب اجتماعيّة أو سياسيّة أو ثقافيّة أو دينيّة أو قوميّة أو لغويّة أو سلاليّة أو تربويّة أو نفسيّة أو غير ذلك، وخريطته مثل وباء كورونا الذي اجتاح العالم بلا رحمة عابراً الحدود والقارّات دون استئذان ودون مصدّات أحياناً، إلّا إذا انتبهت إليه البشريّة وعملت متعاونة مع بعضها البعض لإيجاد لقاح «فاكسين» يشفيها من هذا الوباء.

لكن هل يعفينا ذلك من فعل اللّاتسامح والعنف الذي عانته منطقتنا أيضاً، خصوصاً بارتفاع نبرة الويستيفوبيا «العداء للغرب» باعتباره «شرّاً» مطلقاً كلّه؟ فقد تراجعت مساحة التسامح عربيّاً بعد أن كانت بلادنا لقرون من الزمان مفتوحة للتعدّد الديني حيث عاش اليهود والمسيحيون والمسلمون في حالة أقرب إلى الوئام والسلام.

واختلطت في بلادنا حضارات وثقافات متنوّعة وتواترت عليها شعوب وأقوام تفاعلت إيجابياً مع بعضها البعض، لكن القوى الخارجية الاستعمارية غيّرت الخرائط والجغرافيا ومزّقت العالم العربي ووضعت حدوداً للكيانات الصغيرة والكبيرة استجابة لمصالحها الأنانيّة الضيّقة.

التسامح مسألة استراتيجية بعيدة المدى وليست مسألة تكتيكية ظرفيّة مؤقتة أو طارئة. إنها ضرورة واختيار في آن، وحين يصبح الاختيار ضرورة، فإن ثقافة الكراهية تختفي بالتدرّج لأنها ستكون منبوذة، مثلما يعتدي إنسان ما في مجتمع متحضّر على امرأة وسط الطريق.

عند ذلك يصبح التسامح قبولاً بالآخر كما هو، دون إكراه أو إرغام على فرض دينك أو قوميّتك أو لغتك أو طريقة حياتك عليه، أو إجباره على الرضوخ لمشيئتك بحكم نفوذك أو مسؤوليّتك.

وهذا يعني قبولك بخصوصيّته انطلاقاً من فلسفة «الحق في الاختلاف» و«الحق في التنوّع» و«الإقرار بالتعدّدية»، أي إنه يصير فعل قبول بداهةً وليس فعل تحمّل اضطراراً، والقبول منظومة ثقافية تقوم على القناعة، لأن التنوّع والتعايش مسألة تؤنسن الإنسان وتغنيه روحيّاً.

لقد استوعبنا في ثقافتنا العديد من المتحدّرين من الثقافات الفارسيّة والهنديّة لأنّ كلَّ قبول بالآخر يحمل في جنباته ثقة بالنفس واحترام لها، فالآخر هو جزء لا يتجزّأ من النسيج العام المتكوّن من موازاييك متنوّع وفسيفساء متعدّدة.

لقد كنّا في حالة تنوير وعقلانيّة إسلاميّة ومرحلة ازدهار حضاري وانفتاح إنساني، وهو ما نحتاج إليه اليوم أكثر من قبل وأكثر من غيرنا أيضاً، والجميع بحاجة إلى التسامح الحقيقي وليس الشكلي، بحيث ينبع من السلام الداخلي الروحي والإيمان الحقيقي الذي لا يهتزّ لمجرّد حدث عنفي أو فعل إرهابي، بل يستند إلى قناعة راسخة بقيمه وقانون يحميه.

* د. عبد الحسين شعبان أكاديمي ومفكر عراقي نائب رئيس جامعة اللاّعنف وحقوق الإنسان (أونور) في بيروت.